مدرس المادة: م. قحطان عدنان حميد

كلية الزراعة- جامعة البصرة

المحاضرة الرابعة:

أولاً _ الجانب الروحي للحرية :

يولد الإنسان وهو حامل لكثير من الغرائز والمعاني الفطرية والتي قد يكون بعضها متناقضاً من حيث الجانب المادي إلا انها في معناها الروحي قد تكون واحدة ومن بين هذه الأمور الفطرية هي الحرية والعبودية ، فقال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .

ان هذين المفهومين يتناقضان في المعنى ضمن الإطار المادي ولكنهما في الإطار الروحي في المنظار الإسلامي أحداهما عين الآخر فبما ان الإسلام يرفض ان يعبد الإنسان أيا كان سوى الله (سبحانه وتعالى) فبذلك يرتفع به الى اسمي الدرجات لان الله (سبحانه وتعالى) هو خالق كل شيء فعندما يعبد الإنسان الخالق المطلق المجردة وهو الله (سبحانه وتعالى) يكون متحررا من جميع القيود المادية والمجردة سوى الحرية . ضمن الإسلام من هذا الجانب الروحي للإنسان ما عجزت عنه كل النظريات الغربية والماركسية والمادية والطبيعية نمن تحقيقه .

ولم يقف الإسلام عند تلك الحدود (تحرر الإنسان من كل القيود المادية) بل تعدى ذلك الى التحرر في عبادته حيث ان للإسلام ثلاثة مستويات لعبادته حسب قابلية الفرد للوصول الى أعلى هذه المستويات وهي على أنواع :

١- قسم عبد الله خوفا من ناره فتلك عبادة العبد .

٢- قسم عبد الله طمعا في جنته فتلك عبادة التجار .

٣- قسم عبد الله حبا فتلك عبادة الأحرار ، وهي أعلى مستويات العبادة .

والإسلام يحث عليها ويحببها وجعلها في أعلى مستويات الثواب لأنه يريد للإنسان ان يعبد الله حرا حيث ان هذا الإنسان الذي يعبد الله حبا فيه يكون متحررا من الخوف من النار او الطمع في الجنة وإنما تفكر فعقل فوجد الله (سبحانه وتعالى) أهلا للعبادة فعبده فهو بذلك يكون قد عبد الله مختارا لا مجبرا .

وهنا يجب ان نقف ونتأمل عظمة نظرة الإسلام الى الحرية حيث وضعها في مرتبة تتحد من خلالها أعلى مراتب سلوكيات العبادة وجعل لها الثواب الأعظم فهل أعطت بقية النظريات الليبرالية هذه المكانة للحرية ؟ انم هل استطاعت ان تصل الى هذا المستوى العالي من الفهم للحرية ؟

ثانياً _ الجانب المادي للحرية :

ظهر الإسلام في مجتمع يسوده التخلف والعصبية والعبودية بأبشع صورها وفي جميع مجالات الحياة وكان الإسلام أول ما ظهر به هو التحرر من العبودية لغير الله (سبحانه وتعالى) وذلك من خلال تطبيق مبدأ المساواة بين الناس فلا غني ولا فقير ولا قوي ولا ضعيف .

ولم تكن دعوى الإسلام هذه مجرد شعارات لكسب الأعداد ودخول الناس الى الإسلام ولكن كانت دعوى فعلية وجدت لنفسها واقعا حقيقيا بين المسلمين وتقبلا نفسيا واسعا حتى ان المسلم بعد دخوله للإسلام يجد ذلك واقعا ملموسا ويعيشه من خلال ممارسات المسلمين وعلاقاتهم معه حتى وان كان (في زمن الكفر والشرك) عبدا فيجد نفسه في الإسلام متساويا مع الذي كان سيده ومع جميع البشر .

ولكن الإسلام لم يترك المسلمين وتوجهاتهم وأفكارهم من دون نظام ومن دعوى أقوى من الدافع النفسي للحرية فجاء بالقران ليصرح بذلك في آياته الشريفة فقال تعالى {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } .

وطبق الرسول (ص) مبدأ الحرية والمساواة على ارض الواقع وهو ما اعتبر سنة فهنا مصادر تشريع الإسلام الكبرى نجدها أكدت على حق الحرية لا بل حرصت عليها ، وجاء بعد ذلك الإمام علي (ع) لنجد كل ذلك واضحا جليا في فترة حكمه من خلال تطبيق تلك التشريعات وكذلك التحريض عليها من خلال كلامه (ع) حيث يقول ((لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً)) .

هذا في مجال الحرية اما في مجال التساوي فيقول: في عهده الى مالك الاشتر ((الناس صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)) فالمساواة هي الأرض الصلبة والأساس القوي لبناء الحرية في المجتمع .

فنجد عصر الإمام على (ع) من أكثر العصور التي مرت في تاريخ البشرية كلها قد مارست الحرية حتى نجد في يومنا هذا ان أكثر الأحرار في العالم يأخذون مواقفهم من الدروس والعبر التي جاءت من الإمام علي (ع) أو من ولده الحسين (ع) .

يعد ما بيناه نطرح السؤال التالي : هل يوجد في هذا العالم نظام متكامل مثل النظام الإسلامي ؟

ج / لا ولن يصل أي نظام الى رقي الإسلام لان الإسلام قانون تشريعي قادم من السماء وليس مثل الأنظمة الوضعية التي وضعها الإنسان .

وبعد ما ذكرناه نجد بان الإسلام تميز بنظريته الى الحرية بان جعل لها جانبين يتعامل معها من خلاله وهما الجانب الروحي والمادي ولم يقتصر على جانب واحد وهو المادي في التعامل معها كما فعلت الأنظمة العربية والنظريات المادية والليبرالية التي حولت الإنسان كله الى مادة فقط وتعاملت معه كجسد دون روح ولذا ناقشت المسائل الإنسانية كجسد بلا روح وهكذا كانت نظرتها الى الحرية (كسائر القضايا البشرية) مادية فقط .

بينما الإسلام تعامل معها كما تعامل مع الإنسان بانه ليس مـــــادة فقط بل روح ومادة (أي جسد) فجعل للحرية أيضا روح وجسد (مادة) ولا يمكن الاستفادة من الحرية اذا فقدت احد مقوماتها وهما هذين الجانبين فكيف يمكن التعامل مع الروح بدون جسد تحركه ؟ وكيف يمكن التعامل مع جسد بدون روح تبعث فيه الحياة ؟

وبذلك عرف السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) (ان الحرية في المفهوم الإسلامي ثورة ، وهي ليست ثورة على الأغلال والقيود بشكلها الظاهري فحسب بل على جذورها النفسية والفكرية ، وهكذا كفل الإسلام أرقى وأسمى أشكال الحرية التي ذاقها الإنسان على مر التاريخ) .

وهكذا نرى عظمة الإسلام في نظرته الشمولية للأمور وبعد ذلك يمكن ان نرد على كل من يقول بان الإسلام كله أوامر ونواهي وكله حدود ولا توجد فيه حرية .